التقويم الأصيل: ما بين التقليد والحداثة

«لم أكن أبدا في حيرة من أمري مثل هذه الأيام، حيرتي هذه تكمن في التناقض بين ما هو مثالي وبين ما نعيشه من واقع داخل الصفوف. فما أجمل الحديث عن أساليب جديدة في التعليم، لكن شوقي لتطبيق هذه الأساليب طالما يتبدد من الواقع الصفي المرير» ...هذه هي كلمات معلم لغة إنكليزية في أحد المدارس الفلسطينية. هذه الكلمات جعلتني أتساءل عن مدى قدرة المعلم على التغيير من تلقاء نفسه في الأساليب داخل الصف بمجرد إعطائه بعض الأفكار عن أساليب وطرق حديثة في التعليم دون وجود أرضية خصبة تدعم هذا التغيير. وأسترجع في ذهني مقالة الزميلة ليانا جابر عند حديثها عن موضوع التقييم الأصيل تحت عنوان «التقويم في مدارسنا إلى أين؟» (رؤى، العدد الثاني ٢٠٠٠)، وهنا أتساءل وأقول: هل يمكن أن يطبق المعلم نظام تقويم مثل التقويم الأصيل وإدراج الحقائب التقويمية بمجرد إعطاء النماذج والتدريب؟ أنطلق إلى موضوعي الرئيسي لهذه المقالة وأتحدث فيه عن نظام التقويم الصفي، وأحاول أن أجيب على التساؤل الرئيسي، وهو: هل يمكن أن نغير التقويم التقليدي إلى تقويم أصيل بمعزل عن تغيير الثقافة الصفية والمجتمعية حول مفهوم التقييم؟ لكي نستطيع الإجابة على هذا التساؤل، فإنه يجب أن نفهم مراحل تطور النظريات التربوية عبر التاريخ وأثرها على التقييم. وأشعر أنه لمن المهم فهم هذه النظريات واسترجاعها لأن بعضها ما زال يعمل ويؤثر في العملية التعليمية حتى عصرنا هذا.

منذ بداية التسعينيات ومع تطور الصناعة وظاهرة التمدن، كان هناك تأثيرٌ واضحٌ لنظرية الفاعلية الاجتماعية (Social efficiency theory)، والتي تخص الإنتاج في المصانع، على معتقدات وأفكار التربويين وعلى التعليم والتعلم في تلك الدول. وبناءً على تلك النظرية فإنه كان يجب إعطاء الطلبة المعلومات والمهارات خطوة بخطوة والتأكد من اكتسابها عبر تقييم كل مهارة أو معلومة مكتسبة وعلى مستويات مختلفة، تماما كما يبني العامل عند تشييد البناء «طوبة على طوبة»، والتأكد من الدقة والميلان بالميزان المائي.

في عام 1912، كان لنظرية «الفاعلية» السائدة في تلك الفترة أثرٌ على التقييم التربوي. وحسب هذه النظرية فإن قدرات الإنسان متفاوتة، ولا يمكن بالتالي تعليم الطلاب المهارات المختلفة بنفس الدرجة من الإتقان. وهنا كان لا بد من التنبؤ بدور الشخص المستقبلي في الحياة وتحديد من الذي يستطيع أن يفعل مهمة ما, ومن الذي لا يستطيع. هنا كان دور المناهج المصممة حسب John Bobbitt، أحد رواد نظرية الفاعلية، هو «حذف غيرالقادرين» وتعليم الشخص «حسب قدرته»، بمعنى أن فئة معينة من الناس كانت منتفعة من التعليم، وهذه الرؤيا أنتجت المناهج المنفعية لفئة معينة والتي أفرزت طبقات اجتماعية مختلفة.

كان لنظرية «الفاعلية» السائدة في تلك الفترة أثرٌ على التقييم التربوي. وحسب هذه النظرية فإن قدرات الإنسان متفاوتة، ولا يمكن بالتالي تعليم الطلاب المهارات المختلفة بنفس الدرجة من الإتقان

في عام 1922 تطورت النظرية السلوكية لـ سكنر وهول وجانيه (Skinner & Hull & Gagne) مع تزامن ظهور نظريات التعلم ووجود نظريات الدافعية والفاعلية. وقد أثرت النظرية السلوكية على التعليم والتقييم بشكل كبير. وكان هدف التقييم والامتحانات هو التأكد من تحقق مهمة أو

مفهوم ما قبل الانتقال إلى المفهوم ذي المستوى الاعلى، وأصبحت الدافعية الخارجية والمعتمدة على التعزيز الخارجي سلوكا روتينيا لدى المعلم. وقد عُرف عن Throndike (1918) أنه «أب» القياس العلمي وهو الذي طور الامتحانات الموضوعية مما أدى إلى تعزيز التعلم بالاستظهار. هذا كان له تأثير كبير على تشكيل معتقدات حول التعليم والتعلم وحول العدالة في التقييم. فللتأكد من عدالة التقييم، كان يجب أن تدار الامتحانات بشكل جماعي. وكان للاعتقاد بأن التقييم يجب أن يقيس جزيئات صغيرة أثر على تشكيل الامتحانات لقياس أهداف مجزأة وبشكل موضوعي.

لم يكن لنظريات التعلم أن تتغير إلا بعد حدوث خلل اجتماعي وسياسي بين الدول المتنافسة وخصوصا بين القوى العظمى. فالحرب الباردة والتنافس على التسلح رفع من الوعي بضرورة تغيير جذري في النظام التعليمي السائد. وكانت الثورة الذهنية هي احدى الثورات التربوية المهمة التي تعلمنا وما زلنا نتعلم منها الشيء الكثير. إن تطور النظريات البنائية في التعليم دحض النظريات الميكانيكية السلوكية السابقة.

فنحن الآن نفهم أن التعليم هو عملية نشطة وعملية بناء ذهني يكون فيها المتعلم عاملا نشطا إيجابيا يبني المعرفة بنفسه. وجاءت نظرية التعلم الاجتماعي لـ Vygotsky (1978) مستجيبة لمتطلبات العصر والتغير الاجتماعي التكنولوجي الحاصل في الدول الغربية والمعضلات الاجتماعية الشاذة التي عانى منها الكثير. بالإضافة إلى أن الفرد يبني المعرفة بنفسه حسب النظرية البنائية، فإن الذي يُبنى في العقل يحدد اجتماعيا وثقافيا حسب نظرية التعلم الاجتماعي. إن العملية التعلمية هي عملية اجتماعية وبالتالي فان هذه النظرية أنتجت عدة مبادئ لتحديث المنهاج ومنها أن الطلاب على اختلافهم يستطيعون التعلم. وبالتالي فإن هذه النظرية تدحض المعتقد السابق بأن النخبة هي التي تتعلم. هذه المساواة في الفرص التعليمية لمتعلمين متنوعين هي بمثابة إعطاء فرصة لرفع نوعية الإرشادات وأساليب التعليم إلى أعلى الحدود. وهنا تغير دور المدرسة ليصبح تعليمها أصيلا ومتصلا بالعالم الخارجي وذلك بربط المعرفة مع الواقع.

من خلال هذه المراجعة التاريخية السريعة لتطور نظريات التربية، تظهر أمامنا العلاقة المباشرة بين التغيرات الاجتماعية والثقافية عبر التاريخ وبين تطور نظريات التربية. ليس هذا فحسب، بل يجب أن نلاحظ أيضا أنه ليس بالإمكان تغيير عنصر من عناصر العملية التعليمية إلا بتغيير كافة العناصر التعليمية الأخرى. فوجود الثورة الصناعية في أوائل التسعينيات هو الذي وفر منطلقا ومتنفسا لنظريات الفاعلية والسلوكية في العملية التربوية لتخدم التطور الصناعي، وبالتالي تغيرت كافة العناصر التربوية من أهداف وأنشطة وتقييم، ودور المعلم ومعتقداته ودور الطالب. وكانت ثقافة المجتمع السائدة هي التي مهدت أرضية لاستمرار هذه النظريات. كذلك فالحاجة الاجتماعية الى متعلم نشط فعال جعلت التربويين يفكرون بدراسات لفهم التعلم لدى الطلبة، وهنا تطورت النظريات البنائية والاجتماعية والتي أثرت على جميع عناصر العملية التعليمية التعلمية.

استخدام التقييم من داخل العملية التعليمية

إن التقييم الذي يتخلل العملية التعليمية يحمل عدة أسماء منها التقييم النشط، الفعال، الأصيل، المستمر، وغيره من الأسماء. وسوف أتبنى مصطلح التقييم الأصيل Authentic assessment لشمول هذه الكلمة على عدة معان. فالتقييم الأصيل يعني قياس الإبداع خلال التعلم (Brown, 1995)، ويعني قياس مهارات التفكير الذهنية العليا (Lee, 1992)، ويعني الفرحة بما اكتسبه الطفل من معرفة وما يقدر أن يفعله وأن يتعلمه (Johnson, 1993)، وهذه الكلمة تعني أيضا التأكيد على حقيقة النمو والتطور الحاصل عبر الزمن (Falk, 1993)، وتعني عدم المقارنة بين الطلبة (Gullo, 1994)، و تعني استخدام جميع الحواس لتطوير فهم أعمق للطفل (Hein, 1994). فيما يلي بعض الشروط التي يجب أن تتوفر لكي يكون هناك تقييم أصيل:

-الديناميكية: لكي يكون التقييم أصيلا، يجب أن يكون ديناميكيا. فعلى المعلم أن يكون على دراية بما يقدر الطالب على إنجازه وحده وبشكل مستقل، وما يعرف عمله بشكل جماعي أو بوجود مساعدة من قبل دخيل أكبر سنا منهم أو حتى خبير (Lave & Wengers, 1991). أصحاب هذا التوجه الذي ينبع من نظرية Vygotsky، يؤكدون على أهميته في تشجيع الطالب على عرض أفكاره ومبرراته وأخذ التغذية الراجعة وتنمية مهارات الاتصال بالآخرين ضمن جو تعليمي محض.

-المعرفة السابقة للمتعلمين: على المعلم أن يكون على دراية بالمعرفة السابقة لدى الطلبة، وهنا لا نعني مجرد قياس المعرفة السابقة بواسطة أدوات تقييم وامتحانات قبلية وبعدية، وإنما المقصود هو استخدام الحوار المفتوح (Tharp & Gallimor, 1988) لكي يكون المعلم اكثر قدرة على كشف وإظهار كيفية تكون المعرفة لدى الطلبة وكيف تم بناؤها بشكل منطقي من خلال الخبرات المختلفة، وهي ذات فائدة كبيرة للمعلم الجديد بحيث يتعلم مصادر المعرفة المتكونة لدى الطلبة، من خلال التنوع في خلفيات طلبة الصف.

-الانتقال: على المعلم أن يكون على دراية بأساليب الانتقال بالمعرفة. هناك علاقة وطيدة بين فهم المفهوم بشكل حقيقي وبين نقله لمعرفة تستخدم في أوضاع جديدة. لدعم تعميم ونقل المعرفة يجب أولا أن نتحقق من تمكن هذه المعرفة لدى الطلبة, ومن ثم ربطها بمعرفة سابقة قديمة وطلب نقل المعرفة لتطبيقات جديدة وبالتالي عمل ربط جيد (Shepard, 1997).

-المعايير الواضحة: عندما نتكلم عن التقييم الأصيل فإننا هنا نتحدث عن الشفافية بين المعلم والطالب في المعايير التي يتم التقييم عليها. فمن العدالة أن يعرف الطلبة شروط التقييم لكي يقيموا عملهم بنفس الطريقة التي يقيمهم بها المعلم.

-التقييم الذاتي: التقييم الأصيل يشمل تقييم الطلبة لذاتهم Self Assessment وهذا يؤدي إلى زيادة تحمل مسؤولية الطالب عن تعلمه، ويجعل العلاقة بين المعلم والطالب أكثر تعاونية وتشاركية. هذا لا يعني أن يتخلى المعلم عن المسؤولية بل مشاركتها، وبهذا فان المعلم يحظى بثقة الطلبة وتقديرهم, ويشعر الطلبة بأنهم يجب أن يكونوا أكثر صدقا في عملهم، وان يكونوا عادلين اتجاه طلبة آخرين، وهم بالتالي يصبحون اكثر قدرة على الدفاع عن آرائهم بإحضار براهين ودلائل. إن إشراك الطلبة في تقييم عملهم الذاتي وتحليله يجعل الطلبة متمكنين ومتملكين للعملية التعلمية مما يؤدي إلى رفع مستوى الطلبة. (انظر إلى المثال في الملحق).

-تطوير التعليم: بالإضافة إلى استخدام التقييم لمراقبة ورفع مستوى تعلم الطلبة فإن التقييم الصفي يجب أن يستخدم لتطوير الممارسات الصفية للمعلم. وهنا فإنه من الضروري للمعلمين أن يعملوا تقييما يشمل مدى فهم الطلبة جراء استخدام طريقة تعليم معينة بهدف تحسين التعليم والخطط التعليمية. هذا بالإضافة إلى تقييم عبر عمل أبحاث إجرائية تأملية.

متى يمكن أن نطبق التقييم الأصيل؟

بعد هذه المراجعة لمراحل التقييم عبر التاريخ، ومن خلال عناصر التقييم الأصيل والتي تم عرض جزء منها، فإنه لمن الواضح أن استخدام توجهات حديثة في التقييم يجب أن يشمل تغييرا في شكل التقييم الحالي ومحتواه ليمثل حقيقة التفكير وحل المشكلات. يجب تغيير نظرة المعلم والطلاب إلى التقييم بحيث يكون جزءا من العملية التعليمية وليس في نهايتها فقط. إن تطبيق توجه حديث في التقييم يعني توسيع قاعدة جمع البيانات لتشمل المشاهدة، المقابلة، التأمل، مشاريع مشتركة، نماذج، جمع عمل الطلبة، وتقييم الطالب الذاتي. يجب أن ألاّ نجعل فقط من التقييم وسيلة لجمع معرفة حول الطالب مربوطة بخطوات التعلم، بل يجب في نفس الوقت أن نغير المعنى الاجتماعي للتقييم بحيث يُنظر إليه كمصدر للمعرفة والتنور. فالمعلم بحاجة إلى أن يتعلم كيف يسأل السؤال الصحيح في الوقت المناسب، وان يلتقط الأخطاء المفاهيمية بسياقات مختلفة وهذا بحاجة إلى معرفة عميقة بموضوع التخصص. المعلم بحاجة إلى تطوير ثقافة الصف نحو ثقافة متمركزة على التعلم، وهذا يتطلب منه إشراك الطلبة في التخطيط والتقييم لتغيير الثقافة الصفية حول مختلف العملية التعليمية وخصوصا التقييم.

وأخيرا فإنه يجب علينا أن نخلق طلابا يريدون بطبيعتهم البحث عن تغذية راجعة ونقد لعملهم، وهذا يتطلب مراجعة للنظام التربوي وتطويره بحيث يكون فيه دور واضح للعائلة والإدارة المدرسية وزملاء المهنة والمجتمع المحلي. بإمكان المعلم أن يكون نواة التغيير، ولكن يجب أن نشاركه في هذا العمل وأن نمهد الطريق لهذا التغيير النوعي في التعليم والتقييم لا أن نجعله يفكر في كيفية تحضير طلبته لاجتياز الامتحان «المصيري» .

نادر وهبة

باحث ومنسق أبحاث في مركز القطان

(نظرا لكبر الحيز الذي تشغله «مراجع» المقالة فقد ارتأينا عدم إثباتها في نهاية المقالة، يمكن الحصول عليها عبر الاتصال بالمركز)

الملحق : مثال للتقييم الذاتي : نشاط الإنشاء:(لغة عربية أو إنكليزية)

- اعرض على الطلبة نصا إنشائيا مميزا واجعلهم يستنبطون العناصر التي تميز الكتابة الإنشائية الجيدة من هذا النص. «مثل تناسق الأفكار، ترابطها، المقدمة الجيدة، كيفية الانتقال من فقرة إلى فقرة، الخ...»
- ناقش هذه الأفكار مع الطلبة في الصف واطلب منهم أن يحضروا مواضيع ونصوصا أخرى من المكتبة لتحليلها بناء على المعايير التي تم استنباطها، وشجع الطلبة على استنباط معايير جديدة تميز الكتابة الإنشائية الجيدة.
- اكتب هذه المعايير على ورقة كبيرة وعلقها أمام الطلبة لتكون محكا تقييميا لهم وليقيموا أنفسهم في الكتابة.

معايير تقييم ذاتي

- أستطيع التخطيط قبل أن أكتب.
- أستطيع كتابة موضوع بوجود مقدمة، متن، وخاتمة.
- أستطيع الكتابة بجمل كاملة وذات معنى.
- أترك فراغا بين الكلمات وبين الفقرات.
- أضع نقطة عند كل نهاية جملة.
- أستطيع تمييز موضع الفواصل وعلامات الترقيم في كل جملة.
- أكتب بخط جيد.
- أربط بين الفقرات بشكل جيد.
- أنتقل من فكرة إلى فكرة أخرى بشكل مفهوم.
- أستطيع أن أطلع موضوعي وكتابتي للآخرين لأخذ رأيهم.

- اطلب من الطلبة اختيار مواضيع للكتابة الإنشائية بحيث يراعي فيها الطلبة المعايير التي تم إيجادها.
- وزع المواضيع التي كتبها الطلبة على مجموعات من الطلبة لكي يقوم كل زميل بقراءة موضوع زميله الآخر ويناقشه فيه حسب المعايير المتفق عليها.
- اجمع هذه المواضيع في ملفات أو حقائب خاصة بكل طالب Portfolios وتابع إنجازاتهم في كتابة المواضيع عبر الفصل الدراسي بحيث تعرض على الطلبة المواضيع المختلفة منذ أن بدأ الكتابة وحتى هذه اللحظة.

بهذه الطريقة يستطيع الطلبة أن يقيموا عملهم، ويناقشوه أمام زملائهم ويدافعوا عنه، ويطوروا من أساليب الكتابة عبر الزمن ويلاحظوا أيضا هذا التغير من خلال الملف الذي تم فيه جمع المواضيع عبر السنة الدراسية. وبالإمكان عرض ملفات الطلبة على الأهالي لكي يروا تطورهم عبر الزمن.

رسالة من المعلم إلى الأهل

إلى ولي أمر الطالب .....
المحترم/ة،

سوف يقوم ابنكم بجمع ملف يحتوي على عينة من عمله في موضوع اللغة والإنشاء يُظهر الأمور التي يتعلمها. سوف أستخدم هذا الملف للتعرف ولتحديد نقاط القوة والضعف عند ابنكم وللتخطيط لنشاطات مناسبة.
خلال هذه السنة سوف أطلب منكم شاكرا مراجعة ملف ابنكم عدة مرات، والتعليق على عمله في كل مرة. بإمكانكم الاتصال بي في المدرسة إذا كان لديكم أي سؤال أو إذا أردتم مقابلتي للحديث عن هذا الملف.
يسعدني أن أتعاون معكم عن قرب في رفع مستوى ولدكم.
ولكم بالغ الاحترام،

معلم المادة: .....
الإمضاء: .....
رقم التلفون: .....

ملف الزميل

الاسم: ..... التاريخ: .....
اسم الزميل: .....

- راجع عمل زميلك بتمعن وقم بتحليله حسب المعايير.
- ما هي الأمور التي تظن أن زميلك قد أتقنها؟
- ما هي الأمور التي يمكن لزميلك أن يقوم بتحسينها أكثر؟

دليل مراجعة الملف

سوف يقوم معلمك قريبا بعقد لقاء معك للحديث عن ملفك. قم بمراجعة الملف وحضر للمقابلة بالإجابة على الأسئلة التالية:

- هل تشعر بان لغتك قد تحسنت خلال آخر تقرير أو موضوع قدمته؟
- ما هي الأمور التي تستطيع عملها الآن ولم يكن باستطاعتك عملها من قبل بخصوص الكتابة؟
- كيف تحسنت قراءتك؟
- ما هي المواضيع التي تحب أن تقرأها؟ لماذا؟
- ماذا تفعل من أجل أن تصبح قارئا أفضل؟
- كيف تحسنت كتابتك؟
- ماذا تفعل من أجل أن تصبح كاتبا أفضل؟